ـ كَلِمَةٌ قُبَيْلَ الشُّرُوع :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

((الحَمْدُ للهِ الَّذى أضحك وأبكى، وأمات وأحيا ؛ فَعَرَّفنا بلذَّة الفرح شِدَّة التَّرَح ؛ وبحلاوة الحياة مرارة الوفاة.

قال الطائىُّ :

أَوَمَا رَأَيْتَ مَنَازِلَ ابْنَةَ مَالِكٍ

رَسَمَت لَهُ كَيْفَ الزَّفِيرُ رُسُومُهَا؟.

وَالحَادِثَاتُ وَإِن أَصَابَكَ بُؤْسُهَا

فَهُوَ الَّذِى أَدْرَاكَ كَيْفَ نَعِيمُهَا.

وَقَال :

إِسَاءَةُ دَهْرٍ أَذْكَرَت حُسْنَ فِعْلِهِ

وَلَوْلا الشَّرَى لَم يَعْرِفِ الشَّهْدَ ذَائِقُهْ.

وَصَلَّى اللهُ على خير مبعوث، وأكرم وارثٍ وموروث ؛ مُحَمَّدٍ الَّذى أخرجنا من الضيق إلى الفُسْحَة ؛ وَبُعِثَ إلينا بالحنيفيَّة السمحة ؛ ليضع عن ولد إسماعيل أغلال بنى إسرائيل ؛ بل ليرفع عن كل من دخل في السِّلْم ؛ من جملة العرب والعجم ؛ ما أضلع حمله، وأظلع ثقله ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ صَلاةً تُزْلِفُ لديه ؛ وتصعد فى الكَلِمِ الطَّيِّب إليه ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّم.)) .(١).

(١) - انظر : مُقدِّمة ((جمع الجواهر فى المُلح والنَّوادر)) لأبى إسحاق إبراهيم بن على بن تميم الأنصارىّ الحصرىّ (ت سنة٤٥٣هـ) ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ـ .

((اعلم أنَّ أصناف العلوم الأدبيَّة ترتقى إلى اثنى عشر صِنفاً:

- الأوَّل: علم اللغة.
- والثَّانى: علم الأبنية.
- والثَّالث: علم الاشتقاق.
- والرَّابع: علم الإِعراب.
- والخامس: علم المعانى.
- والسَّادس: علم البيان.
- والسَّابع: علم العروض.
- والثَّامن: علم القوافى.
- والتَّاسع: إنشاء النَّثر.
- والعاشر: قرض الشعر.
- والحادى عشر: علم الكتابة.
- والثَّانى عشر: المُحاضرات.

ولَعَهدى بهذه الأصناف؛ لا يُسمَعُ لها صدىً، ولا تُرى لها عينٌ ولا أثر؛ فيما بين أهل بلادنا، وساكنة ديارنا !!؛ اللَّهُمَّ إلاَّ متنَ اللغةِ؛ هكذا غُفلاً لا يَسِمهُ التَّحقيق؛ وَعُرياناً لا يُشْمَلُ بالإتقان !!.)).[1]

(١) - انظر: مُقدِّمة((القسطاس فى علم العروض)) لأبى القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشرى (ت سنة ٥٣٨هـ) - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - .

❦ - مَقْصِد :

هَذَا هُوَ الجُزْءُ الأَوَّلُ مِن سِلْسِلَة ((النَّحْوالمُيَسَّر)) ؛ قَصَدْنَا بِهِ التَّذْلِيلَ وَالتَّيْسِير ؛ وَأَيَّدْنَاهُ بِالشَّواهِدِ وَالأَمْثِلَةِ الَّتِى تَهْدُفُ إِلَى التَّقْرِيبِ أَكْثَرَ وَأَكْثَر ؛ وَسَنُعَجِّلُ بِإِخْرَاجِ الجُزْءِ الثَّانِى ؛ وَالَّذِى بِهِ يَتِمُّ الإِلْمَامُ بِقَوَاعِدِ هَذَا الفَنِّ العَرَبِىِّ الجَلِيل ؛ وَاللهُ مِن وَرَاءِ القَصْد.

❦ - مَقْصِد :

وَبَعْدُ :

((اللَّهُمَّ لَك أذلّ ، وبك أعزّ ، وإليك أشتاق ، ومنك أفرق ، وتوحيدك أعتقد ، وعليك أعتمد ، ورضاك أبتغى ، وسخطك أخاف ، ونقمتك أستشعر ، ومزيدك أمترى ، وعفوك أرجو ، وفيك أتحيّر ، ومعك أطمئن ، وإيَّاك أعبد ، وإيّاك أستعين ؛ لا رغبة إلاَّ ما نِيطَ بك ؛ ولا عمل إلاَّ ما زُكِّىَ لوجهك ؛ ولا طاعة إلاَّ ما قابله ثوابك ؛ ولا سالم إلاَّ ما أحاط به لطفك ؛ ولا هالك إلاَّ من قعد عنه توفيقك ؛ ولا مغبوط إلاَّ من سبقت له الحُسْنَى منك.

إلهى !! من عرفك قاربك ، ومن نكرك حُرِمَ نصيبه منك ، ومن أثبتك سكن معك ، ومن نفاك قلق إليك ، ومن عبدك أخلص لك ، ومن أحبّك غار عليك ، ومن عظّمك ذهل فؤاده عند جلالك ، ومن وثق بك ألقى مقاليده إليك.

إلهى !! ظهرتَ بالقدرة فوجب الاعتراف بك ، وبطنت بالحكمة فوجب التّسليم لك ، وبدأت بالإحسان فسارت الآمال إليك ، وكنت أهلاً للتَّمام فوقفت الأطماع عليك ، وبحثت العقول عنك فنكصت على أعقابها بالحيرة فيك ؛ وذلك أنّ سرُّكَ لا يُرَام حوزه ؛ وشأنك لا يحول كنهه ؛ وفعلك لا يُجحد تأثيره ؛ لك الأمارة والعلامة ؛

وبك السَّلامة والاستقامة ؛ وإليك الشَّوق والحنين ؛ وفيك الشّكّ واليقين.)) .[1]

قَالَهُ بِلِسَانِهِ ؛ وَقَيَّدَهُ بِبَنَانِهِ

أَبُو نِزَار

مُحَمَّد مَحْمُود دَحْرُوج

ـ عَفَا اللهُ عَنْهُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ ـ

ـ [٢٠١١/٧/١م]ـ

بِمَدِينَةِ الرِّيَاض بِشَمَالِ الدِّيَارِ المِصْرِيَّة

(١) ـ انظر : ((البصائر والذخائر)) ؛(ج٨/٥ـ ٦) لأبى حيان التوحيدىّ (ت نحوسنة ٤٠٠هـ) ؛ تحقيق الدُّكتورة وداد القاضى ؛منشورات دار صادر ببيروت ؛ بعةالأولى: ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م.

ـ توطئةٌ قُبَيْلَ الشُّرُوع : (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

جاء الإسلام واللغة العربيَّة مستكملة أدوات التعبير، ولها تراث أدبي حافل مفصح عن شتى المشاعر الوجدانية والاجتماعية، قد اتفقت الكلمة على الاعتداد بهذا التراث والإعجاب به منذ عصر الجاهلية حتى اليوم.

والعرب أمة فصاحة وبلاغة ؛ تتأثر بالبيان الرفيع والجملة الوجيزة الموحية، وكانت أسواق العرب في جاهليتها قد قامت بالاصطفاء من لغات القبائل، وأخذ الشعراء والبلغاء أنفسهم بما أجمعوا على استحسانه منها ؛ حتى تنافسوا في ذلك وأصبحت هذه اللغة المصطفاة هي المتفق على التعبير بها عما يخالج النفوس من أغراض وأحاسيس ؛ وصرنا نسمع شبه هذا الإجماع على سلامة لغة قبائل الجزيرة والطعن بلغات أهل السواحل ؛ لمخالطتهم الأجانب في الأسفار والتجارات.

فلما كانت الفتوحات واختلاط العرب الفاتحين بالشعوب التي كانت تحت سيطرة الفرس والبيزنطيين والأحباش، ودخول كثير من هؤلاء في الإسلام، واضطرارهم إلى تعلم ما استطاعوا من العربية، وكان بين العرب الفاتحين وهؤلاء الشعوب اختلاط وأخذ وعطاء، تسرب الفساد إلى لغة كثير من العرب وبدأ

(١) - هذه التوطئة بقلم العلاَّمة الأديب سعيد الأفغاني (ت سنة ١٤١٧هـ) ـ رحمهُ اللهُ تعالى ـ. انظر: مقدمة ((الموجز في قواعد اللغة العربية)) ؛ منشورات دار الفكر ببيروت ؛ ط: (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م).

يُسمع لحن في التخاطب، قليلاً في الأول؛ ثم أخذ في الانتشار حتى لفت إليه أنظار المسئولين وغيرهم من أهل الحل والعقد.

يعتبر اللحن الباعث الأول على تدوين اللغة وجمعها وعلى استنباط قواعد النحو وتصنيفها؛ فقد كانت حوادثه المتتابعة نذير الخطر الذي هب على صوته أولو الغيرة على العربية والإسلام.

ولا بأس من عرضٍ تاريخيٍّ سريعٍ لبعض أحداثه المتتابعة:

- بوادر اللحن:

بدأ اللحن قليلاً خفيفاً منذ أيام الرسول على ما يظهر، فقد لحن رجل بحضرته فقال: ((أرشدوا أخاكم؛ فإنه قد ضل)).

والظاهر أيضاً أنه كان معروفاً بهذا الاسم نفسه ((اللحن)) ؛بدليل أن السيوطي روى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله: ((أنا من قريش، ونشأت في بني سعد؛ فأنى لي اللحن ؟!.)).

وقد كان أبو بكر الصِّدِّيق يقول: ((لأن أقرأ فأسقط أحبّ إليَّ من أن أقرأ فألحن)).

فإذا بلغنا عهد عمر رأينا المصادر تثبت عدداً من حوادث اللحن؛ فتذكر أن عمر مرَّ على قوم يسيئون الرمي، فقرَّعهم، فقالوا: ((إنا قوم متعلمين)) ؛ فأعرض مغضباً؛ وقال: ((واللهِ لخطؤكم في لسانكم أشدّ عليَّ من خطئكم في رميكم! ؛ سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: رحم الله امرأً أصلح من لسانه.)).

وورد إلى عمر كتابٌ أوله: ((من أبو موسى الأشعري)) !!.

فكتب عمر لأبي موسى بضرب الكاتب سوطاً.

والأنكى من ذلك تسرب اللحن إلى قراءة الناس للقرآن ؛ فقد قدم أعرابي في خلافة عمر فقال: ((من يقرئني شيئاً مما أُنزل على محمد؟)) ؛ فأقرأه رجل سورة براءة بهذا اللحن: ﴿ وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسولِهِ ﴾!! ؛ فقال الأعرابي: ((إن يكن الله بريئاً من رسوله، فأنا أبرأ منه!)).

فبلغ عمر مقالة الأعرابي ؛ فدعاه ؛ فقال: ((يا أمير المؤمنين! إني قدمت المدينة))...، وقص القصة ؛ فقال عمر: ((ليس هكذا يا أعرابي)) ؛ فقال: ((كيف هي يا أمير المؤمنين؟)) ؛ فقال: ﴿أن اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ ؛ فقال الأعرابي: ((وأنا أبرأ ممن برئ الله ورسوله منهم.)) .

فأمر عمر ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة.

ولعمر تنسب تلك المقولة المأثورة: ((تعلموا العربية ؛ فإنها تثبت العقل، وتزيد في المروءة .)).

ومر عمر برجلين يرميان، فقال أحدهما للآخر: ((أسبت)) !! ؛ فقال عمر: ((سوء اللحن أشدّ من سوء الرمي.)) ـ فجعل إبدال الصاد سيناً ؛ من اللحن ـ .

وتكاد قصة بنت أبي الأسود تكون المعْلم المشهور في تاريخ النحو:

فقد دخل عليها أبوها في وقدة الحر بالبصرة ؛ فقالت له: ((يا أبت ! ما أشدُّ الحرّ!.)) ـ رفعت ((أشد)) ؛ فظنها تسأله وتستفهم منه: أي زمان الحر أشد؟ـ ؛ فقال لها: ((شهرا ناجر)).

فقالت: ((يا أبت ! إنما أخبرتك ولم أسألك !)).

ونتقدم خطوة في الزمن ؛ فيقص علينا ابن قتيبة:

أن رجلاً دخل على زياد فقال له: ((إن أبينا هلك؛ وإن أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا)). !!.

فقال زياد: ((ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضاع من مالك!!.))،

وأن أعرابياً سمع مؤذناً يقول: ((أشهد أن محمداً رسولُ الله))؛ فقال: ((ويحك!، يفعل ماذا؟!.)).

وأن أعرابياً دخل السوق؛ فسمعهم يلحنون؛ فقال: ((سبحان الله! يلحنون ويربحون؛ ونحن لا نلحن ولا نربح!.)).

وروى الجاحظ:

أن أول لحن سُمع بالبادية: ((هذه عصاتي)) بدل ((عصاي)).

وأول لحن سُمع بالعراق: ((حيٍّ على الفلاح)) ـ بكسر الياء بدل فتحها.

ثم شاع في العصر الأموي؛ حتى تطرق إلى البلغاء من الخلفاء والأمراء؛ كعبد الملك والحجاج!؛ والناس يومئذ تتعاير به، وكان مما يُسقط الرجل في المجتمع أن يلحن؛ حتى قال عبد الملك ـ وقد قيل له: أسرع إليك الشيب ـ: ((شيبني ارتقاء المنابر مخافة اللحن.)).

وكان يقول: ((إن الرجل يسألني الحاجة فتستجيب نفسي له بها؛ فإذا لحن انصرفت نفسي عنها.)).

وكان يرى اللحن في الكلام أقبح من التفتيق في الثوب النفيس.

والحجاج على أنه من الخطباء الأبيناء البلغاء؛ كان في طبعه تقزز من اللحن أن يقع منه أو من غيره، فإذا وقع منه حرص على ستره وإبعاد من اطلع عليه منه؛ ذكروا أنه سأل يحيى بن يُعمر الليثي: ((أتسمعني ألحن على المنبر؟))؛ فقال

يحيى: ((الأمير أفصح الناس؛ إلا أنه لم يكن يروي الشعر)) ؛ قال: ((أتسمعني ألحن حرفا؟)) ؛ قال: ((نعم؛ في آي القرآن)) ؛ قال: ((فذاك أشنع!؛ وما هو؟!)) ؛ قال: تقول:

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ؛ تقرؤها أحبُّ بالرفع)).

فأنف الحجاج أن يطلع له رجل على لحن؛ فبعث به إلى خراسان!.

وكان الحجاج يعجب بفصاحة يحيى هذا؛ فسأله يوما: ((أخبرني عن عنبسة بن سعيد: أيلحن؟)) ؛ قال: ((كثيراً)) ؛ قال: ((أفأنا ألحن؟)) ؛ قال: ((لحناً خفيفاً)) ؛ قال: ((كيف ذلك؟!)) ؛ قال: ((تجعل أن إن، وإن أن، ونحو ذلك)) ؛ قال: ((لا تساكني ببلدٍ!؛ اخرج)).

وكان الرجل إذا أراد أن يفلت من عمل للحجاج عاذ باللحن فنجا.

وهؤلاء تطرق إليهم قليل من اللحن لبعدهم عن قومهم في الجزيرة مع أنهم نشئوا فيها وترعرعوا واكتهلوا، فلما كان من بَعدهم عظم فشوّ اللحن فيهم؛ حتى كان من أعظم المصائب في نفس عبد الملك أن ابنه الوليد لَحَّانة، وأنه أخذه بتعلم العربية فلم يفلح.

ونقلوا عن عبد العزيز بن مروان الأمير الأموي المعروف - وهو أخو عبد الملك - لحناً؛ على أن عبد العزيز هذا وهو من أفصح الناس كان يعطي على العربية ويحرم على اللحن، حتى قدم عليه زوّارٌ من أهل المدينة وأهل مكة من قريش، فجعل يقول للرجل منهم: ((من أنت ؟)) ؛ فيقول: ((من بني فلان)) ؛ فيقول

للكاتب: ((أعطه مائتي دينار)) ؛ حتى جاءه رجل من بني عبد الدار ؛ فقال: ((من أنت؟)) ؛ فقال: ((من بنو عبد الدار!)) ؛ فقال: ((تجدها من جائزتك)) ؛ وقال لكاتبه: ((أعطه مائة دينار)).

وقال عمر بن عبد العزيز: ((إن الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها ؛ فيلحن ؛ فأرده عنها ؛ وكأني أقضم حبَّ الرُّمان الحامض لبغضي استماع اللحن ؛ ويكملني آخر في الحاجة لا يستوجبها ؛ فيعرب ؛ فأجيبه إليها ؛ التذاذاً لما أسمع من كلامه)).

وكان يقول: ((أكاد أضرس إذا سمعت اللحن)).

وهذا معاوية بن بجير والي البصرة ؛ تشغله لحنة الناعي عن مصيبته بأبيه ؛ فيقدم إنكارها!!.

فأنت تجد مما تقدم أن الخوف على العربية له ما يفرضه من النُّذُر، وأنه تمكن في النفوس حتى تضافرت جهود العلماء وذوي السلطان على صيانة العربية، وأن الحرمان من المال أو العمل مما كان يصيب اللحَّانة، وأن فصاحة المرء قد ترفعه إلى الولايات والغنى وتزيد شأنه عند أولي الأمر ؛ وهذا من طرف السلطان كافٍ في الترغيب والترهيب، وسؤال الحجَّاج عن لحن بعض الناس ذوي الشأن مشعر باهتمام الحكومة والمجتمع بأمر اللحن ؛ وذلك طبيعي من دولة قامت على العصبية العربية بعد أن رأت اللحن يفشو في الطبقات الرفيعة من الأمراء والحكام وأشراف الناس.

وفي قصة بشكست النحوي تعبير واضح عن أمرين: فشو اللحن ؛ ونظرة المثقفين إليه. ولا بأس في إيرادها ؛ ففيها طرافةٌ، وفيها ظَرفٌ:

((وفد بشكست النحوي على هشام بن عبد الملك، فلما حضر الغداء دعاه هشام، وقال لفتيان بني أمية: تلاحنوا عليه.

فجعل بعضهم يقول: يا أمير المؤمنين ! رأيت أبي فلان !!، ويقول آخر: مر بي أبي فلان !، ونحو هذا !.

فلما ضجوا؛ أدخل يده في صحفة فغمسها؛ ثم طلى لحيته وقال لنفسه: ذوقي! هذا جزاؤك في مجالسة الأنذال !!.)).

إلى هذا المدى بلغ أمر اللحن في المائة الأولى للهجرة والدولة عربية محضة، والعصبية ذات سلطان، والقوم حديثو عهد بجزيرتهم، ولا تزال مجتمعاتهم تتناقل القول المشهور: ((ليس للاحن حرمة)) ؛ وتتعامل به.

هذا عبد الملك بن مروان استأذن عليه رجل من عِلْية أهل الشام وبين يديه قوم يلعبون بالشطرنج ؛ فقال: ((يا غلام !غطها)) ؛ فلما دخل الرجل فتكلم ؛ لحن ؛ فقال عبد الملك: ((يا غلام ! ؛ اكشف عنها ؛ ليس للاحن حرمة !)). .

وبيت الخلافة أعرق بيوت قريش شرفاً ومجداً وبلاغةً، وأقواها عصبيةً وعروبةً ؛ والعرب ـ كما قرَّر ابن جني ـ أشد استنكاراً لزيغ الإعراب منهم لخلاف اللغة، فقد ينطق بعضهم بالدخيل والمولد ؛ ولكنه لا ينطق باللحن ؛ ولذلك اشتد بلال بن أبي بردة على خالد بن صفوان لما رآه يلحن في حديثه العفوي معه ؛ فقال له: ((أتحدثني أحاديث الخلفاء ؛ وتلحن لحن السقاءات؟! .)) .

فلنحاول تبيان ما اختط أهل العربية من خطط يعالجون بها استفحال الداء، وهل كانوا إلى الشدة حين شرطوا للاحتجاج تلك الشروط التي أسقطت الاحتجاج بكلام كثير من العرب حتى في زمن الجاهلية؟.

ـ تصنيف العرب من حيث الوثوق بسلامة لغتها :

ـ من يحتج به :

يراد بالاحتجاج هنا إثبات صحة قاعدة، أو استعمال كلمة أو تركيب ؛ بدليل نقليٍّ صَحَّ سنده إلى عربيٍّ فصيحٍ سليمِ السليقة.

وإنما احتاج القوم إلى الاحتجاج لَمَّا خافوا على سلامة اللغة العربية بعد أن اختلط أهلها بالأعاجم إثر الفتوح وسكنوا بلادهم وعايشوهم ؛ فنشأ عن ذلك بسُنَّة الطبيعة أخذٌ وعطاءٌ في اللغة والأفكار والأخلاق والأعراف.

وتنبه أولو البصر إلى أن الأمر آيلٌ إلى إفساد اللغة وضياع العصبية من جهة، وإلى التفريط في صيانة الدين من جهة ثانية ؛ إذ كانت سلامة أحكامه موقوفة على حُسن فهم المستنبط لنصوص القرآن الكريم والحديث الشريف ؛ وكان في ضعف العربية تضييعٌ لهذا الفهم.

بحث علماء العربية فيمن نقل الرواة عنهم من أهل المدر والوبر قدماء ومحدثين، وتقصوا أحوالهم ونقدوها ؛ فاجتمعوا على الاحتجاج بقول من يوثق بفصاحته وسلامة عربيته.

ونحن عارضون لأصناف هؤلاء زماناً ومكاناً وأحوالاً.

فأما الزمان ؛ فقد قبلوا الاحتجاج بأقوال عرب الجاهلية وفصحاء الإسلام حتى منتصف القرن الثاني سواء أسكنوا الحضر أم البادية.

أما الشعراء ؛ فقد صُنِّفوا أصنافاً أربعة : جاهليين لم يدركوا الإسلام ؛ ومخضرمين أدركوا الجاهلية والإسلام ؛ وإسلاميين لم يدركوا من الجاهلية شيئاً، ومحدثين أولهم بشار بن برد.

وشبه الإجماع انعقد على صحة الاستشهاد بالطبقتين الأوليين ؛ واختلفوا في الطبقة الثالثة ؛ وذهب عبد القادر البغداديُّ صاحب ((خزانة الأدب)) إلى جواز الاستشهاد بها.

أما الطبقة الرابعة ؛ فلا يُستشهد بكلامها في علوم اللغة والنحو والصرف خاصة. وكان آخر من يحُتج بشعره على هذا الأساس بالإجماع إبراهيم بن هرمة ((٧٠ـ١٥٠هـ)) الذي ختم الأصمعيُّ به الشعر.

أما أهل البادية ؛ فقد استمر العلماء يدوِّنون لغاتهم ؛ حتى فسدت سلائقهم في القرن الرابع الهجري.

وعلى هذا ؛ أجمعوا على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللغة العربية.

وأما المكان ـ أو بعبارة أخرى : القبائل ـ ؛ فقد اختلفت درجاتها في الاحتجاج على اختلاف قربها أو بعدها من الاختلاط بالأمم المجاورة ؛ فاعتمدوا كلام القبائل في قلب جزيرة العرب ؛ وردوا كلام القبائل التي على السواحل أو في جوار الأعاجم. وإليك تصنيف أبي نصر الفارابي لهم في الاحتجاج :

١. كانت قريش أجود العرب انتقاءً : للأفصح من الألفاظ ؛ وأسهلها على اللسان عند النطق ؛ وأحسنها مسموعاً ؛ وأبينها عما في النفس.
   - والذين عنهم نُقلت اللغة العربية ؛ وبهم اُقتدي ؛ وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب ؛ هم :
٢. قيس وتميم وأسد ؛ فإن هؤلاء هم الذين أُخذ عنهم أكثر ما أُخذ ومعظمه ؛ وعليهم اُتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف.
٣. ثم هُذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ،

ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم.

وبالجملة ؛ فإنه لم يؤخذ عن حضري ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم :

- لم يؤخذ من لخم ولا من جذام ؛ فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط.
- ولا من قضاعة ولا من غسَّان ولا من إياد ؛ فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام ؛ وأكثرهم نصارى يقرءون بصلاتهم بغير العربية.
- ولا من تغلب ولا النمر ؛ فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية.
- ولا من بكر ؛ لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس.
- ولا من عبد القيس ؛ لأنهم كانوا من سكان البحرين مخالطين للهند والفرس.
- ولا من أزد عمان ؛ لمخالطتهم للهند والفرس.
- ولا من أهل اليمن أصلاً ؛ لمخالطتهم للهند والحبشة ؛ ولولادة الحبشة فيهم.
- ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وسكان الطائف ؛ لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم.
- ولا من حاضرة الحجاز ؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم.

وكأن هذا التصنيف حاز القبول وجرى عليه العمل ؛ وكان الخروج عليه مدعاة إلى النقد.

ولما اعتمد ابن مالك على لغات لخم وجذام وغسان ؛ تعقبه باللوم أبو حيَّان ؛ فقال في((شرح التسهيل)) : ((ليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن !)).

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: ((لا أقول: قالت العرب؛ إلا ما سمعت من عالية السافلة وسافلة العالية)) ـ يريد ما بين نجد وجبال الحجاز حيث قبائل أسد وتميم وبعض قبائل قيس ـ ، بل كان عثمان يقول: ((لا يُملينَّ في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف .)).

وأما أحوال هؤلاء العرب المحتج بهم؛ فخيرها ما كان أعمق في التبدي وألصق بعيشة البادية؛ ولذا كان مما يفخر به البصريون على الكوفيين أخذهم عن الأعراب أهل الشيح والقيصوم وحرشة الضباب وأكلة اليرابيع، ويقولون للكوفيين: ((أخذتم عن أكلة الشواريزوباعة الكواميخ!)).

وقد نص الفارابيُّ بعد قوله المتقدم آنفاً على صناعة هؤلاء الأعراب وصفاتهم؛ فقال: ((كانت صنائع هؤلاء التي بها يعيشون الرعاية والصيد واللصوصية، وكانوا: أقواهم نفوساً؛ وأقساهم قلوباً؛ وأشدهم توحشاً؛ وأمنعهم جانباً؛ وأشدهم حميَّة؛ وأحبهم لأن يَغلبوا ولا يُغلبوا؛ وأعسرهم انقياداً للملوك؛ وأجفاهم أخلاقاً؛ وأقلهم احتمالاً للضيم والذلة.)).

وتستطيع أن تجعل مرد الأمر كله ـ بعد ما تقدم لك ـ إلى الوثوق من سلامة لغة المحتج به وعدم تطرق الفساد إليها، وهذا هو الضابط في التصنيف الزماني والمكاني اللذين مرا بك، فأنت تعلم إسقاط العلماء الاحتجاج بشعر أمية بن أبي الصلت وعدي بن زيد العبادي ـ وحتى الأعشى عند بعضهم ـ؛ لمخالطتهم الأجانب وتأثر لغتهم بهذه المخالطة، حتى حمل شعرهم عدداً غير قليل من ألفاظ ومصطلحات لا تعرفها العرب، وكل هؤلاء شعراء جاهليون.

بينما يذهب فريق إلى الاحتجاج بكلام الشافعي المتوفى في القرن الثالث للهجرة، حتى نص الإمام أحمد بن حنبل على أن ((كلام الشافعي في اللغة حجة)) ؛ لسلامة نشأته ؛ وتقلبه في البيئات العربية السليمة.

قيل لبشار: ((ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئاً استنكرته العرب من ألفاظهم وشُكَّ فيه ؛ وإنه ليس في شعرك ما يُشك فيه!)).

قال: ((ومن أين يأتيني الخطأ ؟! ؛ ولدت ههنا ؛ ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ؛ وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت ؛ فمن أين يأتيني الخطأ؟!.)).

وكلمة بشار هذه دليل قاطع على وجود بيئات في المدن سليمة من اللحن لزمنه في المائة الثانية للهجرة.

ويعجبني كثيراً قول ابن جني في هذا الموضوع ؛ في باب ((ترك الأخذ عن أهل المدر كما أُخذ عن أهل الوبر)) :

((علة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدر من الاختلال والفساد والخطل، ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر ؛ وكذلك أيضا لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها ؛ لوجب رفض لغتها وترك تلقي ما يرد عنها ؛ وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا ؛ لأنا لا نكاد نرى بدوياً فصيحاً ؛ وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه لم نكد نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه.)).أ هـ.

ـ مَدْخَل:

بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

وَبِه نستعين

عَن ابْن أبي مُلَيكَة ـ رَضِي الله عَنهُ ـ؛ قَالَ:

قدم أَعْرَابِي فِي زمَان عمر؛ فَقَالَ: من يُقْرِئُنِي مِمَّا أنْزِلَ الله على مُحَمَّد ـ صلى الله عَلَيْهِ وَسلم ـ؛ فَأَقْرَأَهُ رجل سُورَة بَرَاءَة؛ فَقَالَ: ﴿ أَن الله بَرِيءٌ من الْمُشْرِكين وَرَسُوله ﴾ ـ بِالْجَرِّ ـ؛ فَقَالَ الأَعرَابِي: أَو قد برىء الله من رَسُوله؟!! إِن يكن الله قد برىء من رَسُوله فَأَنا أَبْرَأ مِنْهُ. !!.

فَبلغ عمر مقَالَة الأَعرَابِي؛ فَدَعَاهُ؛ فَقَالَ: يَا أَعْرَابِي! أَتَبرأ من رَسُول الله ـ صلى الله عَلَيْهِ وَسلم ـ؟!!.

قَالَ: يَا أَمِير الْمُؤمِنِينَ! إِنِّي قدمت الْمُشْرِكين وَلا علم لي؛ فَسَأَلت من يُقْرِئُنِي؛ فأقرأني هَذَا سُورَة بَرَاءَة فَقَالَ: ﴿ أَن الله بَرِيء من الْمُشْرِكين وَرَسُوله ﴾!!؛ فَقلت: أَو قد برىء الله من رَسُوله؟!! إِن يكن الله قد برىء من رَسُوله فَأَنا أَبْرَأ مِنْهُ!.

فَقَالَ عمر: لَيْسَ هَكَذَا يَا أَعْرَابِي!.

قَالَ: فَكيف هِيَ يَا أَمِير الْمُؤمِنِينَ؟.

فَقَالَ: ﴿ أَن الله بَرِيء من الْمُشْرِكين وَرَسُوله ﴾.

فَقَالَ الأَعرَابِي: وَأَنا وَالله أَبْرَأ مِمَّا برىء الله وَرَسُوله مِنْهُ.

فَأمر عمر بن الْخطاب أَلا يقرىء الْقُرْآن إِلا عَالم باللغة؛ وَأمر أَبَا الأسود فَوضع النَّحْو.

عَن أبي الأسود الدؤَلِي ـ رَضِي الله عَنهُ ـ ؛ قَالَ : دخلت على أَمِير الْمُؤمِنِينَ عَليّ بن أبي طَالب ـ رَضِي الله عَنهُ ـ ؛ فرأيته مُطرقاً مُتفكراً !.

فَقلت : فيمَ تفكر يَا أَمِير الْمُؤمِنِينَ؟.

قَالَ : إِنِّي سَمِعت ببلدكم هَذَا لحناً ؛ فَأَرَدْت أَن أصنع كتاباً فِي أصُول الْعَرَبيَّة.

فَقلت : إِن فعلتَ هَذَا أَحْيَيْتَنَا وَبقيت فِينَا هَذِه اللُّغَة.

ثمَّ أَتَيْته بعد ثَلاث ؛ فَألْقى إِلَيّ صحيفَة فِيهَا :

((بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

الْكَلام كُله : اسْم ؛ وَفعل ؛ وحرف.

فالاسم مَا أنبأ عَن الْمُسَمّى.

وَالْفِعْل مَا أنبأ عَن حَرَكَة الْمُسَمّى.

والحرف مَا أنبأ عَن معنى لَيْسَ باسم وَلا فعل .)).

ثمَّ قَالَ لي : تتبعه وزد فِيهِ مَا وَقع لَك ؛ وَاعْلَم يَا أَبَا الأسود أَن الأَسْمَاء ثَلاثَة : ظَاهر ؛ ومضمر ؛ وَشَيْء لَيْسَ بِظَاهِر وَلا مُضْمر ؛ وَإِنَّمَا تتفاضل الْعلمَاء فِي معرفَة مَا لَيْسَ بِظَاهِر وَلا مُضْمر.

قَالَ أَبُو الأسود : فَجمعت مِنْهُ أَشْيَاء وعرضتها عَلَيْهِ ؛ فَكَانَ من ذَلِك حُرُوف النصب ؛ فَذكرت مِنْهَا : إِن ؛ وَأَن ؛ وليت ؛ وَلَعَلَّ ؛ وَكَأَن.

وَلم أذكر((لَكِن)) ؛ فَقَالَ لي : لم تركتهَا؟.

فَقلت : لم أحسبها مِنْهَا !.

فَقَالَ : بل هِيَ مِنْهَا ؛ فزدها فِيهَا.

مُحَمَّد بن عباد المهلبي، عَن أَبِيه؛ قَالَ: سمع أَبُو الْأسود الدؤَلِي - رَضِي الله عَنهُ - ﴿أَن الله بَرِيء من الْمُشْركين وَرَسُوله﴾ - بِالْجَرِّ - ؛ فَقَالَ: لا تطمئِن نَفسِي إِلا أَن أَضَع شَيْئا أصلح بِهِ لحن هَذَا.

قَالَ الْعُتْبِي - رَحمَه الله -: كتب مُعَاوِيَة إِلَى زِيَاد يطْلب عبيد الله ابْنه، فَلَمَّا قدم عَلَيْهِ كَلَّمه، فَوَجَدَهُ يلحن، فَرده إِلَى زِيَاد؛ وَكتب إِلَيْهِ كتاباً يلومه فِيهِ وَيَقُول: ((أمثل عبيد الله يضيع ؟!!.)).

فَبعث زِيَاد إِلَى أبي الأسود؛ فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا الأسود ! إِن هَذِه الْحَمْرَاء قد كثرت وأفسدت من ألسن الْعَرَب؛ فَلَو وضعت شَيْئاً يُصلح بِهِ النَّاس كَلامهم ويعربون بِهِ كتاب الله؟.

فَأبى ذَلِك ابو الأسود؛ فَوجه زِيَاد رجلاً؛ وَقَالَ لَهُ: اقعد فِي طَرِيق أبي الأسود؛ فَإِذا مر بك فاقرأ شَيْئا من الْقُرْآن وتعمد اللّحن فِيهِ.

فَفعل ذَلِك؛ فَلَمَّا مر بِهِ أَبُو الأسود رفع الرجل صَوته فَقَرَأَ: ﴿ أَن الله بَرِيء من الْمُشْركين وَرَسُوله﴾ - بِالْجَرِّ - ؛ فاستعظم ذَلِك أَبُو الأسود!؛ وَقَالَ: عزَّ وَجه الله أَن يبرأ من رَسُوله!!.

ثمَّ رَجَعَ من فوره إِلَى زِيَاد؛ فَقَالَ: يَا هَذَا ! قد أَجَبْتُك إِلَى مَا سَأَلت؛ وَرَأَيْت أَن ابدأ بإعراب الْقُرْآن؛ فَابْعَثْ إِلَيّ ثَلاثِينَ رجلاً.

فأحضرهم زِيَاد؛ فَاخْتَارَ مِنْهُم أَبُو الأسود عشرَة؛ ثمَّ لم يزل يختارهم حَتَّى اخْتَار مِنْهُم رجلاً من عبد الْقَيْس؛ فَقَالَ: خُذ الْمُصحف وصبغاً يُخَالف لون المداد؛ فَإِذا فتحت شفتي فانقط وَاحِدَة فَوق الْحَرْف؛ وَإِذا ضممتها فَاجْعَلْ

النقطة إِلَى جَانب الْحَرْف ؛ فَإِذا كسرتها فَاجْعَلْ النقطة من أسفل الْحَرْف ؛ فَإِن أتبعت شَيْئاً من هَذِه الحركات غُنة فانقط نقطتين.

فابتدأ بالمصحف حَتَّى أَتَى على آخِره ؛ ثمَّ وضع الْمُخْتَصر الْمَنْسُوب إِلَيْهِ بعد ذَلِك.

وعَن يحيى بن يعمر اللَّيْثِيّ :

أَن أبا الأسود الدؤَلِي ـ رَضِي الله عَنهُ ـ دخل إِلَى ابْنَته بِالْبَصْرَةِ ؛ فَقَالَت لَهُ : يَا أَبَت ! مَا أَشد الْحر ـ رفعت أَشد ـ ؛ فظنها تسأله وتستفهم مِنْهُ : أَي زمَان الْحر أَشد؟ ؛ فَقَالَ لَهَا : شهر ناجر ـ يُرِيد شهر صفر.

فَقَالَت : يَا أَبَت ! ؛ إِنَّمَا أَخْبَرتك وَلم أَسأَلك . !!.

فَأتى أَمِير الْمُؤمنِينَ عَليّ بن أبي طَالب ـ كرَّم الله وَجهه ـ ؛ فَقَالَ : يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ ! ؛ ذهبت لُغَة الْعَرَب لما خالطت الْعَجم وأوشك إِن تطاول عَلَيْهَا زمَان أَن تضمحل !!. فَقَالَ لَهُ : وَمَا ذَلِك؟!!.

فَأخْبرهُ خبر ابْنَته ؛ فَأمره ؛ فَاشْترى صُحفاً بدرهم ؛ وأملى عَلَيْهِ :

((الْكَلام كُله لا يخرج عَن اسْم وَفعل وحرف جَاءَ لِمَعْنى.)).

وَهَذَا القَوْل أول كتاب سِيبَوَيْهِ ؛ ثمَّ رسم أصُول النَّحْو كلهَا فنقلها النحويون وفرَّعوها.

وَقَالَ أَبُو الْفرج الْأَصْبَهَانِيّ رَحمَه الله

أَخْبرنِي عِيسَى بن الْحُسَيْن قَالَ حَدثنَا

وعَن الْمَدَائِنِي ؛ قَالَ : أَمر زِيَادٌ أَبَا الأسود الدؤَلِي ـ رَحمَه الله ـ أَن ينقط الْمَصَاحِف ؛ فنقطها ورسم من النَّحْو رسوماً ؛ ثمَّ جَاءَ بعده مَيْمُون الأقرن ـ رَحمَه الله ـ فَزَاد عَلَيْهِ فِي حُدُود الْعَرَبيَّة ؛ ثمَّ زَاد فِيهَا بعده عَنْبَسَة بن معدان

الْمهرِي ـ رَحمَه الله ـ ؛ ثمَّ جَاءَ عبد الله بن أبي إِسْحَاق الْحَضْرَمِيّ وَأَبُو عَمْرو بن الْعَلاء ـ رحمهمَا الله ـ فزادا فِيهِ ؛ ثمَّ جَاءَ الْخَلِيل بن أَحْمد الأَزْدِيّ ـ رَحمَه الله ـ فلحب الطَّرِيق.

وَنجم عَليّ بن حَمْزَة الْكسَائي ـ رَحمَه الله ـ مولى بني كَاهِل من أَسد ؛ فرسم للكوفيين رسوماً ؛ والآن يعْملُونَ عَلَيْهَا.

وعَن جَعْفَر بن أبي حَرْب بن أبي الأسود الدؤَلِي ، عَن أَبِيه ـ رَحمَه الله ـ ؛ قَالَ : قيل لأبي الأسود : من أَيْنَ لَك هَذَا الْعلم ـ يعنون النَّحْو ـ ؟.

قَالَ : أخذت حُدُوده عَن عَليّ بن أبي طَالب ـ كرَّم الله وَجهه ـ.

وعَن عَاصِم بن أبي النّجود ـ رَحمَه الله ـ ؛ قَالَ :

أول من وضع الْعَرَبيَّة هُوَ الأسود الدؤَلِي ؛ جَاءَ إِلَى زِيَاد بِالْبَصْرَةِ ؛ فَقَالَ لَهُ : أصلح الله الأَمِير ؛ إِنِّي أرى الْعَرَب قد خالطت هَذِه الأَعَاجِم وتغيَّرت ألسنتهم ! ؛ أفتأذن لي أَن أَضَع لَهُم علماً يُقِيمُونَ بِهِ كَلامهم ؟.

قَالَ : لا .

قَالَ : ثمَّ جَاءَ زياداً رجلٌ ؛ فَقَالَ : مَاتَ أَبَانَا وَخلف بنُون. !!.

فَقَالَ زِيَاد : مَاتَ أَبَانَا وَخلف بنُون !! ؛ ردُّوا إِلَيّ أَبَا الأسود الدؤَلِي .

فَرُدَّ إِلَيْهِ ؛ فَقَالَ : ضع للنَّاس مَا نهيتك عَنهُ.

فَوضع لَهُم النَّحْو.

وَقد روى هَذَا الحَدِيث عَن أبي بكر بن عَيَّاش يزِيدُ بْنُ مهْرَان ؛ فَذكر أَن هَذِه الْقِصَّة كَانَت بَين أبي الأسود وَبَين عُبيد الله بن زِيَاد.

وعَن أبي حَرْب بن أبي الأسود ـ رَحمَه الله ـ ؛ قَالَ: أول بَاب وَضعه أبي من النَّحْو: بَاب التَّعَجُّب.

قَالَ السيرافيُّ ـ رَحمَه الله ـ : وَيُقَال: إِن السَّبَب فِي ذَلِك أَنه مرَّ بِأبي الأسود سعد الْفَارِسِيّ ؛ وَكَانَ رجلاً فارسيًّا من أهل بوزنجان كَانَ قدم الْبَصْرَة مَعَ جمَاعَة من أَهله ؛ فدنوا من قدامَة بن مَظْعُون الجُمَحِي ؛ فَادعوا أَنهم أسلموا على يَدَيْهِ وَأَنَّهُمْ بِذَاكَ من موَالِيه ؛ فَمر سعد هَذَا بِأبي الأسود وَهُوَ يَقُود فرسه ؛ فَقَالَ لَهُ: مَا لَك لا تركب؟ ؛ فَقَالَ: إِن فرسي ضالع!!.

فَضَحِك بِهِ بعض من حَضَره ؛ فَقَالَ أَبُو الأسود: هَؤُلاءِ الموَالِي قد رَغِبُوا فِي الإِسْلَام ودخلوا فِيهِ فصاروا لنا إِخْوَة ؛ فَلَو علمناهم الْكَلام.

فَوضع بَاب الْفَاعِل وَالْمَفْعُول بِهِ ؛ وَلم يزدْ عَلَيْهِ.

وَقَالَ أَيْضاً ـ رَحمَه الله ـ : وَيُقَال: إِن أبا الأسود لما وضع بَاب الْفَاعِل وَالْمَفْعُول بِهِ زَاد فِي ذَلِك الْكتاب رجل من بني لَيْث أبواباً ؛ ثمَّ نظر فَإِذا فِي كَلام الْعَرَب مَا لا يدْخل فِيهِ ؛ فأقصر عَنهُ ؛ وَلَعَلَّ هَذَا الرجل يحيى بن يعمُر.

وعَن خَالِد الْحذّاء ـ رَحمَه الله ـ ؛ قَالَ: أول من وضع الْعَرَبيَّة نصرُ بن عَاصِم.

وعَن أبي النَّضر ؛ قَالَ: كَانَ عبد الرَّحْمَن بن هُرْمُز ـ رَحمَه الله ـ أول من وضع الْعَرَبيَّة.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَة معمر بن الْمثنى ـ رَحمَه الله ـ : أول من وضع الْعَرَبيَّة أَبُو الأسود الدؤَلِي ؛ ثمَّ مَيْمُون الأقرن ؛ ثمَّ عَنْبَسَة الْفِيل ؛ ثمَّ عبد الله بن أبي إِسْحَاق.

ـ رَحِمهم الله تَعَالَى ـ.

وَقَالَ مُحَمَّد بن سَلاَّم الجُمَحِي ـ رَحمَه الله ـ : وَكَانَ أول من أسَّس الْعَرَبيَّة وَفتح بَابهَا وأنهج سَبِيلهَا وَوضع قياسها ابو الأسود الدؤَلِي ؛ وَإِنَّمَا فعل ذَلِك حِين اضْطربَ كَلام الْعَرَب.